القسم الثانى

مجالات الدراسة فى علم الاجتماع

الفصل السادس : الفروق الريفية الحضرية

الفصل السابع : علم الاجتماع الحضرى المقارن

الفصل الثامن : علم الاجتماع الاقتصادى

الفصل التاسع : علم الاجتماع الصناعى

الفصل العاشر : علم الاجتماع السياسى

الفصل الحادى عشر : علم الاجتماع العائلى

الفصل الثانى عشر : الدراسة الاجتماعية للسلوك المنحرف

الفصل الثالث عشر : المفاهيم الرئيسية فى علم السكان

الفصل الرابع عشر : الدراسة الاجتماعية للسكان

الفصل الخامس عشر : علم الاجتماع الدينى

الفصل السادس عشر : علم الاجتماع المعرفى

الفصل السابع عشر : علم اجتماع الفن

الفصل السادس

الفروق الريفية الحضرية*

اهتم علماء الاجتماع فى السنوات الأخيرة بشكل متزايد بمناقشة مبررات الفصل بين علم الاجتماع الحضرى وعلم الاجتماع الريفى ، وما إذا كان هناك أصلا من الاعتبارات ما ينهض لتبرير هذا الفصل . وأخرج رجال الاجتماع طوفانًا من البحوث والمؤلفات التى تتناول مشكلة المدينة والريف من منظور سوسيولوجى ، وهى أمر يناقض أشد التناقض ذلك الغموض العجيب وعدم التحديد الذى يحيط بمفهوم كل من « الريفى » و « الحضرى »[1] . ولقد ظلت ثنائية التقسيم ريف وحضر تعتبر منذ أمد بعيد من المقولات الأساسية للبحوث السوسيولوجية على اختلاف اتجاهاتها ومناهجها .

ويصدق هذا بشكل خاص على المحاولات الأولى فى « علم الاجتماع الزراعى » Agarian Sociology أوربا[2] . وقد كانت محاولات ذات طابع فلسفى تأملى أكثر منه علمى إمبيريقى ، نجد أفضل نموذج لها عند العالم الاجتماعى الألمانى الأشهر « فيلهلم هينريش ريل » Riehl [3] .

كما استمر هذا الاتجاه فى (علم الاجتماع الريفى) Rural Sociology ، الذى يعتبر نبتًا أمريكيا خالصًا . وقد اعتبر هذا العلم « الفروق الريفية الحضرية » أقرب إلى المسلمة البديهية منها إلى نتيجة ملموسة من نتائج البحث الإمبيريقى .

والواقع أن المشكلات هنا ترجع إلى صعوبات لفظية فى جانب منها ، كما ترجع فى الجانب الآخر إلى عمليات ربط غير سليمة من الناحية المنطقية . فتعريف الريف وتعريف المدينة على معايير متباينة تختلف من حالة لأخرى ، الأمر الذى يؤدى إلى كثير من الخلط والاضطراب . يضاف إلى هذا شىء هام آخر ، وهو أن هذا « الريف » أو بالأحرى هذا « الريف » Rurality الذى يعرفه الباحثون تعريفات غامضة يرتبط فى جميع الأحوال تقريبًا بحكم قيمى إيجابى متميز وقوى فى نفس الوقت فنجد كثيرًا من المؤلفات القديمة فى علم الاجتماع الريفى تصور شكل الحياة الحضرى

* هذا الفصل من تأليف الدكتورة علياء شكرى .

« تبعًا لدرجة اختلافه عن شكل الحياة الريفى باعتباره انحرافًا إلى حد ما عن المعيار السليم » . وما من شك فى أن مثل هذا الأسلوب فى معالجة الموضوع يبتعد أشد البعد عن الأسلوب السوسيولوجى المنضبط منهجيا . ومع ذلك نجد فى أحد الأعداد الأولى من مجلة « الاجتماع الريفى » الأمريكية تحذيرًا واضحًا من عدم تحديد مصطلحى « ريفى » و « حضرى » وقد أشار تشارلز نيكولز Nichols صاحب ذلك المقال إلى ضرورة الكف عن البحث عن تعريفات سليمة منطقيا لهذين المصطلحين ، والسعى بدلا من ذلك إلى العثور على شواهد موضوعية لتحديد الفروق بين هذين النوعين من المجتمعات[٤] .

فالمشكلة الحقيقية التى يجب أن يتصدى علماء الاجتماع الريفى والحضرى لمعالجتها وإلقاء الضوء عليها هى : كيف تتباين البناءات الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية تبعًا لتباين الانتشار المكانى للبشر الذين يصدر سلوكهم فى كلا الموقفين عن دوافع متشابهة فى جوهرها . كما يهتم العلم على العكس من ذلك أيضًا بالتعرف على الطريقة التى تؤثر بها العوامل الاجتماعية وخاصة القيم الاجتماعية ، على البيئة (الإيكولوجيا) التى يعيش فيها الناس . ونلاحظ أن قيام المدن ، وما تعنيه من اكتظاظ أعداد كبيرة من السكان فى أماكن معينة بعد مراحل من الترحال البدوى والتخلخل الريفى قد أثارت اهتمام علماء الاجتماع منذ أمد بعيد ، لما يصاحبها من ظواهر اجتماعية متميزة ، وقد تراكمت أعداد هائلة من الدراسات والبحوث السوسيولوجية حول هذه العملية ، ودوافعها الاقتصادية والاجتماعية ، وتنويعاتها الإقليمية والثقافية . غير أن الدراسة السوسيولوجية للريف والحضر تركز مع ذلك على عدد محدود من الظواهر الأساسية يمكن أن نعدد أهمها فيما يلى : شكل التفاعل بين الإنسان والمكان ، كيف ينتقل هذا الإنسان من مكان إقامته الأول إلى مكان جديد ، وهى أمور تتفاعل أوثق التفاعل مع الأهداف الاقتصادية ، والاجتماعية والثقافية لجماعة من الجماعات فطبيعة الوحدة العمرانية تتوقف على طريقة تحقيق هذه الأهداف فى ظروف سكانية ، وتكنولوجية ، واقتصادية معينة .

وقد استعان الدارسون الذين اهتموا بموضوع الفروق الريفية الحضرية بمحكات قليلة يمكن إرجاعها فى نهاية الأمر إلى فروق إيكولوجية ومهنية ، وأخرى خاصة بالبناء الاجتماعى[٥] . فتتميز المنطقة « الريفية » فى رأيهم بالسمات التالية : صغر حجم الجماعة ، وقلة عدد السكان ، وسيطرة العمل الزراعى والبيئة الطبيعية ، وتجانس السكان ، وقلة التدرج الاجتماعى ، وضعف الحراك الاجتماعى ، وسيطرة العلاقات الشخصية والعلاقات غير الرسمية ، وفى مقابل هذا تتميز المنطقة « الحضرية » بالسمات التالية ، ضخامة حجم الوحدة العمرانية وارتفاع الكثافة السكانية ، والمهن

غير الزراعية ، والبعد عن البيئة الطبيعية . واختلاط السكان وعدم تجانسهم ، وشدة الحراك الاجتماعى ووضوح التدرج الاجتماعى وسيطرة العلاقات الاجتماعية الرسمية الثانوية ، وقد وصف سوروكين وزمرمان هذه الفروق بأنها خصائص أساسية ترتبط ببعضها ارتباطًا عليًّا[٦] . على أن المؤلفين يؤكدان تأكيدًا واضحًا أن هذه الأمور ليست فى الحقيقة سوى متغيرات . أى أنها فروق فى الدرجة وليست فروقًا فى النوع إطلاقًا .

ثم اهتم عدد من رجال الاجتماع بعد ذلك بفكرة « المتصل الريفى الحضرى » Rural-urban Continum ، ولكنها سرعان ما تعرضت لانتقادات عديدة بعد ذلك . ويمكننا أن نلخص الاعتراضات التى وجهت إلى هذا المفهوم فى النقاط التالية[٧] .

١ – لم يعد من الممكن القول بوجود متصل ريفى حضرى ذى بعد واحد بعد أن أثبتت البحوث الإمبيريقية أن السمات المذكورة آنفًا لا تتوفر مجتمعة فى جميع الأحوال .

٢ – إذا نظرنا إلى المتصل الريفى الحضرى كعملية دينامية ، فإن ذلك سوف يعنى ضمنًا القول بحدوث « تحضر » و « تصنيع » دائب متصل فى خط واحد لا يتقهقر ، كما أن مثل هذه الفكرة تتجاهل ولا شك الصور الجديدة التى أثبتت البحوث الإمبيريقية وجودها للتحضر وللتصنيع ، والواقع أن العملية التاريخية للتمايز بين الريف والحضر قد تمت على نحو تشبيهى فقط ، ويؤكد سوروكين وزمرمان تلك الحقيقة ، سواء إذا استعرضنا تلك العملية فى مجتمع بعينه . أو إذا تتبعنا التمايز بين الريف والحضر على مستوى المجتمع الإنسانى كله ، أو حتى فى المجتمعات ذات الطابع الريفى الغالب ، فبرغم كل التباين الموجود بين القوى الدافعة إلى نمو المدن وإلى التصنيع ، فإن نقطة الانطلاق تتشابه دائمًا ولا يبدأ التباين إلا مع تباين وظائف إنتاج الطعام والوظائف ذات الطابع غير الزراعى ، ولا يتسنى ظهور هذا التباين إلا عندما ينتج العاملون فى الزراعة من المواد الغذائية أكثر مما يستطيعون استهلاكه على أن الفرق بين النطاقين – الريفى والحضرى – يكون دائمًا ضعيفًا غير ظاهر فى البداية ثم تأخذ فى التضخم والظهور ، حتى يصل إلى نقطة الذروة ، التى تبدأ بعدها تقل من جديد .

وهناك من الشواهد ما يؤكد الزعم القائل بأن المجتمعات الغربية الصناعية قد وصلت بالفعل إلى نقطة الذروة هذه ، وبدأت عملية التقارب الكبير بين ريف تلك البلاد وحضرها ، وهو تقارب لا يصح أن نعتبره مجرد « تحضر » مستمر وذى خط واحد للمناطق الريفية القليلة المتبقية ، ونلاحظ هنا أن الفرض الذى قدمه « لويس ويرث » Wirth (فى مقاله : الحضرية كأسلوب حياة » المنشور فى المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع[٨] والذى يتكلم عن الحضرية كأسلوب فى الحياة

فى عالمنا الحديث يقول بانتقال بعض السمات الاجتماعية الخاصة بالمدينة وبعض أشكال الحياة منها إلى الريف ، وتؤكد البحوث الأمبيريقية الحديثة هذه الآراء إلى حد ما . فقد تحولت المدن الكبرى والمتوسطة إلى مراكز إشعاع تمارس تأثيرًا متزايدًا على الريف المحيط بها ، ويرجع هذا التوسع المستمر فى تأثير المدينة إلى نمو سكان الحضر بالدرجة الأولى . فالهجرة فى اتجاه واحد من الريف إلى المدينة تؤدى إلى زيادة سكان الحضر زيادة واضحة . كما يرجع الفضل فى انتشار « الحضرية » Urbanism إلى الاتصالات المتعددة المتزايدة عمقًا بين المدينة والقرية ، وهى الاتصالات التى ترجع فى المقام الأول إلى تقدم المواصلات ووسائل الاتصال الجماهيرى من صحافة وسينما وإذاعة وتليفزيون . ولما كانت هذه الاتصالات ذات طابع دورى ، ولا تسير دائمًا فى اتجاه معين . أى أنها لا تغادر البيئة الأصلية – المدينة أو القرية – نهائيًا وأن هناك حركات فى كلا الاتجاهين ، من الريف إلى المدينة والعكس . لذلك نجدها تلعب دورًا واضحًا فى عملية إعادة تشكيل بعيدة المدى على كلا الجانبين ومن شأن هذه الحقيقة أن تحتم علينا إعادة النظر فى قضية التحضر . فالعزلة الاجتماعية – كما يقول كارل تايلور (فى كتابه الحياة الريفية فى الولايات المتحدة)[٩] – لم تعد تقاس بالمسافة المكانية وحدها ، وإنما بنقص الاتصالات الإنسانية ، فالحضرية لم تعد ظاهرة مرتبطة بمكان معين ، أى أنها لم تعد ظاهرة جغرافية ، وإنما هى فى حقيقة الأمر موقف عقلى معين . فقد نفذت إليها بعض العناصر الريفية المحدودة . وبذلك يمكن أن نصادف أفرادًا أو جماعات ذوى نظرة حضرية فى المناطق الريفية ، تمامًا كما دلت البحوث والدراسات التى أجريت فى المناطق الحضرية على وجود بعض سمات السلوك والوعى الريفية . فما من شك فى أن الحضرية كشكل من أشكال الحياة تعتبر « نظرة خاصة إلى العالم » كما أوضح نيلز أندرسون Anderson فى كتابه « المجتمع الحضرى »[١٠] Urban Community ولذلك يعتبر من الأمور الهامة التى يجب أن تضعها البحوث فى هذا المجال فى اعتبارها فى المستقبل أن هناك بعض صور الاجتماع الإنسانى التى لا تندرج تحت أى من الفئتين ، « ريف » و « حضر » ، ولا يمكن أن نفهم هذه التكوينات الاجتماعية حق فهمها إلا فى ضوء بنائها الاجتماعى الكلى الخاص بها ولا تكفى مصطلحات « تشارلز جالين » Galpin « الحضريفى » (الحضر الريفى ، أو شىء من هذا القبيل) Rurbanisation [١١] ، ولا تعبير « كارل مانهايم » : « التحضر وتفريعاته »[١٢] للتعبير بشكل واف عن هذه العمليات التى تقودنا البحوث الأمبيريقية إلى الكشف عنها فى الواقع الاجتماعى الحى .

٣ – لا شك أن الميل إلى استخدام ثنائية ساذجة ، تبسط ثنائية تونيز وأشباهها ، سوف يؤدى

إلى حجب رؤية الواقع رؤية صحيحة تماماً ، فمجموعات البيانات الفنية الإيكولوجية المعينة لا يمكن أن تختزل إلى هاتين الفئتين الاجتماعيتين فحسب . ونذكر من بين الثنائيات الشهيرة « المقدس والعلمانى » (لهوارد بيكر) و « الشعبى والحضرى » (لروبرت ردفيلد) . و « المجتمع المحلى والمجتمع » (لفرديناند تونير) . والأمر الخطير فى هذا الموضوع بالذات وصف المجتمعات التى تعتبر بهذه الطريقة « ريفية » – وهى المجتمع المحلى مثلا – بأنها « الشكل الاجتماعى السليم والصحيح » . فهذا التجميد الذى لا مبرر له « لشكل الحياة الريفى الطبيعى » لا نزال نلمسه حتى يومنا هذا فى سائر مجالات الفكر الاقتصادى والاجتماعى على السواء فى البلاد الصناعية[١٣] .

ومن الطريف أن علم الاجتماع الحضرى قد أبدى فى مراحله الأولى تلك الآراء القيمية التى تفضل أشكال الحياة الريفية على حساب الأشكال الحضرية نفسها ، وقد هاجم « بينيت Bennet » مدرسة شيكاغو القديمة فى علم الاجتماع الحضرى بسبب أيديولوجيتها المناوئة للتحضر . ولازال هذا التحيز الريفى ملحوظاً للباحث المدقق حتى فى داخل الولايات المتحدة نفسها اليوم ، التى تعد أكثر الدول الصناعية فى العالم[١٤] .

وقد قام « هانز باول باردت » Bahrdt (فى مؤلفه « المدينة الحديثة ») بتفنيد النقد الموجه إلى المدينة الكبرى فكشف عن عدد من الأخطاء والمغالطات التى وردت عن طائفة من أشد المتحمسين للريف والحياة الريفية . . مثل فيلهلم هينريش ريل ، وأوزفالد شبنجلر وغيرهما . وقد بين فى البداية أن الانتقادات النمطية الموجهة اليوم إلى المدينة الكبيرة الحديثة تتخيل فى الحقيقة المدينة التى كانت قائمة فى أوائل عصر التصنيع ، والتى لم يعد لها اليوم أى وجود فى الواقع ، وإنما تحولت إلى حقيقة تاريخية لا أكثر . ويقول باردت فى ثنايا حديثه : « إن التوظيف الأيديولوجى لنقد المدينة الكبيرة فى إطار نوع من الفكر الرومانسى المحافظ قد حال بين الناقدين وبين رؤية الواقع المتغير وإدراكه . وهذا هو السبب فى أن الحجج التى تساق ضد المدينة الكبيرة لم تتغير منذ أكثر من مائة عام . مما جعل الناس تتصور أنه لا يمكن دحضها أو الرد عليها[١٥] » . كذلك يمكن القول أيضًا بأن ذلك الحكم النمطى على الريف يرجع فى نهاية الأمر إلى نوع من العجز الأيديولوجى الذى حجب عقول الناس عن إدراك التغير الذى طرأ على الواقع الريفى أو أعجزهم عن إدراكه . فالمدينة والريف شكلان من أشكال عملية تطورية اقتصادية اجتماعية وثقافية واحدة فى خطوطها الأساسية .

وتدل الدراسة التاريخية السريعة على أن الشكلين الاجتماعيين « المدينة » و « الريف » نفسيهما قد تعرضا للتغير المستمر . وأن العوامل المكونة لهما ظلت فى تغير متصل على طول مراحل التطور .

غير أنه لا جدال فى أن شكل الحياة العمرانية يؤثر على النسق الاجتماعى وعلى أساليب السلوك الاجتماعى . غير أن شكل الحياة العمرانية نفسه هذا يخضع إلى حد بعيد لتأثير التنظيم الاقتصادى والفنى . فحدود إحدى القرى تتحدد – على سبيل المثال – فى ضوء ضرورة استغلال بقعة معينة انطلاقاً من مركز معين . فإذا استطاعت منطقة ريفية (قرية مثلا) أن تنتج من المواد الغذائية أكثر من طاقة استهلاك سكانها . فإنه تنتقل إليها أعداد من الناس الذين لا يمارسون حرفة الزراعة . ولكن فى حدود العدد الذى تستوعبه احتياجات هؤلاء السكان الزراعيين من الحرف والمهن غير الزراعية . أما الباقون فيتجهون إلى المناطق المركزية (المدن) حيث يوجد تركز بشرى فى مكان محدود يستطيعون فيه إشباع احتياجاتهم مع بذل الحد الأدنى من الطاقة والوقت . حقيقة أن المدينة تظل مرتبطة بالريف من خلال حاجتها إلى الغذاء . ولكنها تمثل مع ذلك بعداً اقتصاديا وسكانيا واجتماعيًا جديدًا مختلفًا عن القرية[١٠] .

وتتعرض أحجام ومواقع المدن والقرى ودرجة قربها المكانى من بعضها لتغيرات مختلفة تبعًا للظروف الطبيعية . والتكنولوجية . والسياسية والثقافية التى تمر بها . وإن كانت تخضع بالدرجة الأولى لمستوى توفر مصادر الطاقة وأساليب النقل والمواصلات . وكان الوضع فى المراحل التاريخية الأولى لم تكن قد توفرت فيها بعد مستويات صناعية متقدمة أن حجم وتباعد كل من القرية والمدينة كان جامداً نسبيا تبعًا لدرجة الخصوبة الطبيعية للأرض الزراعية المحيطة بكل منهما . ووفقًا لما تستطيعه وسائل المواصلات حل مشكلة نقل المواد الغذائية . ولذلك كان حجم كل من القرى والمدن صغيرًا نسبيًا فى تلك المرحلة من مراحل التطور .

ثم تتابعت صور التقدم فى أساليب الزراعة . مما أمكن معه ازدياد قدرة نفس الرقعة من الأرض الزراعية على استيعاب مزيد من السكان . وقد عرفت الزراعة مراحل تقدم بارزة فى هذا الصدد : من المراعى إلى زراعة الحبوب . إلى تعدد المحاصيل فى الموسم الزراعى الواحد . ولو أننا نؤكد مع ذلك أن للتوسع الزراعى الرأسى (أى زيادة غلة قطعة معينة من الأرض) والأفقى (أى استصلاح مزيد من الأراضى التى لم تكن صالحة للزراعة من قبل) حدوداً معلومة تتقيد بمساحة ونوعية الأرض الزراعية المتاحة . وقد شهدت تلك المرحلة نوعًا من التمايز التقليدى النمطى بين الريف والمدينة بسبب صعوبة نقل الطاقة إلى مسافات بعيدة وضعف شبكة النقل والمواصلات . مما ترتب عليه حدوث تركيز مكانى للحرف والصناعات البسيطة والخدمات فى أماكن محدودة . وفى تلك المرحلة كانت القرية بصفة عامة ذات كثافة منخفضة ومتباعدة عن بعضها . وتتخصص فى الإنتاج الزراعى أساساً . وكان هناك فى مقابلها وحدات عمرانية أكبر حجماً . هى المدن .

تتركز فيها أنشطة اقتصادية أخرى هى الحرف والتجارة أساسًا . ولم تستطع المدن للأسباب المذكورة أن تتجاوز أحجامًا معينة .

ويقابل هذا التباين البنائى الوظيفى لكل من القرية والمدينة تباين فى الشكل الاجتماعى أيضًا . فعلى حين أخذ البناء الاجتماعى فى المدينة يزداد تباينًا بفعل تقسيم العمل المتزايد . ظل البناء الاجتماعى فى الريف متجانسًا نسبيا . ولم يكن من الممكن حدوث زيادة جوهرية فى سكان الريف إلا بعد أن زادت الإنتاجية الزراعية زيادة واضحة على إنتاج السلع الرأسمالية بفضل التقدم الفنى الصناعى . ولكن لما كان جوهر الاستثمار الرأسمالى يقوم على تقليل العمل الإنسانى الذى يؤدى لإنتاج نفس الكمية من السلع أصبح من الممكن استثمار القوة العاملة التى أصبحت فائضة فى الزراعة استثمارًا مفيدًا من الناحية الاقتصادية فى مهن غير زراعية أساسًا معنى هذا أن القرى شهدت على أى حال تخلخلا نسبيًا فى عدد سكانها .

وهكذا كانت السمة المميزة لتلك الفترة أن التخلى عن العمل الزراعى الذى نتج عن التقدم الصناعى -- قد ارتبط -- بهجرة الريف نفسه -- ولذلك ارتبط التصنيع فى أول الأمر بالتركز السكانى فى أذهان الناس . وهو أمر منطقى تمامًا كما نرى . فقد تطلب ثبات مصادر الطاقة وضرورة استخدامها قرب مكانها بسبب عدم القدرة على نقلها إلى أماكن بعيدة تطلب نمو عدد المصانع وتركزها فى مناطق تركيز معينة . وكان من نتيجة قصور وسائل المواصلات فى تلك الفترة أن أصبح من الضرورى إنشاء الأحياء السكنية للعاملين فى تلك المصانع قريبة بقدر الإمكان من مواقع المصانع . وهكذا حدث فى جميع البلاد التى شهدت موجة التصنيع العاتية فى القرن التاسع عشر تركزًا حقيقيًا فى المراكز الصناعية وهروبًا من الريف على نطاق واسع . وقد ارتبط هذا الهروب الجماعى بالخراب الاقتصادى . والثقافى . والاجتماعى لبعض المناطق الريفية . فقد بدأت فى ذلك الحين مرحلة انطلاق المدينة بلا حدود ولا قيود .

ولا شك أن هذه الفترة بذكرياتها المريرة القاسية . من سوء أحوال السكان الصناعيين الجدد فى المدن الناشئة . وخراب بعض المناطق الريفية وماحقها من دمار . قد أثر حتى اليوم بشكل متميز على أحكام بعض المشتغلين بالسياسة الاجتماعية . بل وبعض الباحثين الاجتماعيين أيضًا . ولما كانت الأعداد الضخمة من السكان المتدافعين إلى المدن قد افتقدت الأشكال الاجتماعية التقليدية التى ألفتها فى بيئتها القديمة . عملت على أن تخلقها لنفسها من جديد . وكان علم الاجتماع فى طور النشأة آنذاك فاتجه الباحثون بكلياتهم إلى تلك البؤر الخطيرة للمشكلات .

ومن الطريف أن نستعرض بسرعة كيف تأثرت النظريات التى وضعت فى ذلك الوقت

بظروف ذلك الموقف التاريخى المحدد . فنجد فى ألمانيا أن إليزابيث بفايل Pfeil تشير إلى أن الثنائية التى حددها . فرديناند تونيز : المجتمع المحلى والمجتمع التى تقوم على « الرابطة الفطرية » و « رابطة المصلحة » على التوالى تعبر بالدرجة الأولى عن الأختلاف بين المجتمع الريفى والمجتمع الحضرى[١٧] . ثم تخيل فيلهلم هينريش ريل بعض التناقضات بين الريف والمدينة مثل الثبات فى الريف . والحركة والتغير فى المدينة ، والثقافة النمطية فى الريف فى مقابل الثقافة الفردية المتميزة فى المدينة ، والتراث مقابل العقل والاجتهاد . . إلخ . . وبالغ « ريل » فى تضخم بعض هذه التناقضات بشكل غير علمى . وقد تجاهل هؤلاء المفكرون وأمثالهم فى ثنايا حديثهم هذا أن القرى لم تكن فى أصلها سوى كيانات اجتماعية صناعية أيضًا . وأن طول التاريخ الاجتماعى والاقتصادى الذى عاشته هو الذى حجب عن ناظرينا حقيقتها تلك من ناحية بنائها ووظيفتها الأصليتين . ولم يكن من الممكن كما أنه ليس من المعقول أن يقوم العالم الصناعى من فراغ . فلابد أن الحضارة الصناعية الحضرية فى العالم الغربى قد نهلت من التراث الاجتماعى والثقافى الذى عرفته المجتمعات الزراعية فى ذلك العالم من قبل . وقد ساهم فى الكشف عن تلك الحقيقة البسيطة . الهامة كل الأهمية مع ذلك ، عدد كبير من الدارسين فى علم الاجتماع الغربى .

وكان من نتيجة التغيرات البعيدة المدى وعدم الدراسة الكاملة بدينامية العمليات الجارية أن عمل علم الاجتماع على إبراز كل ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية التى تؤدى إلى تجميع الناس أو تترتب على تركز مجموعات سكانية كبيرة فى منطقة محدودة . ويرجع إلى تلك الفترة ذلك الحكم المبالغ فيه على المدينة الكبيرة بأنها ليست سوى « حشد لا شكل له من الأفراد » . وهو الحكم الذى ورد عند ماكس فيبر فى كتابه « المدينة » . ومن التناقض العجيب أن أولئك الباحثين قد تجاهلوا أن عنصرى التفكير العقلى الرشيد والسعى وراء المنفعة اللذين كثيرًا ما اتهمت بها حياة المدينة كانا بالذات وراء إعادة تنظيم تلك الكتلة من الأفراد التى لا شكل لها . ولا شك أن ذلك التأكيد المبالغ فيه لقيمة التضامن والتماسك الشديد فى الحياة الاجتماعية الريفية يرجع إلى نفور من مشكلات التكيف التى كان يلاقيها المهاجرون الجدد إلى المدينة . وإزاء السرعة الكبيرة فى تلاحق الأحداث فى المدينة ، وصعوبة السيطرة على مسارها ، كانت القرية تعتبر ولا شك موئلا للمجتمع الساكن المستقر . ولكل ما هو طبيعى ويمثل إرادة الله .

وقد ثبت منذ أمد بعيد خطأ القضية التى تقول بأن مجتمع القرية يعيش فى حالة الارتباط الفطرى . ومن المؤكد أن صغر حجم القرية وقدرة الباحث على إدراكها فى مجموعها قد أضفى عليها نوعًا من الترابط والتجانس . غير أن هناك رغم تلك العلاقات الشخصية الوثيقة عديدًا من

سمات التوتر والاضطراب فى الحياة الاجتماعية لا يمكن تجاهل وجودها هكذا ببساطة وقد أخذ البناء الاجتماعى للقرية الأوربية فى التمايز منذ أمد بعيد . أبعد مما يعتقد بصفة عامة . فقد عرفت القرية الأوربية إلى جانب طوائف الحرفيين والصناع الزراعيين . كما عرفت منذ بداية عصر التصنيع شريحة اجتماعية نصف قروية . كما ظهرت بعض معالم التباين الاجتماعى ، التى اتضحت فى كثير من القرى الألمانية – على سبيل المثال – فى ذلك الوقت ، حيث كان اختيار شريك المستقبل وتكوين جماعات الجواريتم على أساس العلاقات بين الفئات الاجتماعية الجامدة إلى حد كبير . والواقع أنه بمقدار تحديد معالم مجتمع القرية إزاء العالم الخارجى ، كان الاقتراب الشخصى بين أعضائه يزداد وضوحاً .

وإزاء هذه المقارنة أدى التبسيط الزائد إلى تصور وجود نمط معين من الحياة الاجتماعية القروية . وأعنى « المجتمع القروى المحلى » Village Community وأشار بعض الدارسين (مثل لين سميث)[١٨] إلى أنه من الممكن تصنيف المجتمعات الريفية فى العالم كله إلى فئتين أساسيتين . الفئة الأولى هى « نمط القرية » ، وهى تتميز بأن السكان الزراعيين يتركزون فى نواة سكانية . والفئة الثانية هى « العزبة » أو الوحدة القروية الصغيرة التى تضم مجموعة سكانية محدودة . وترتبط تلك الوحدات الصغيرة بواسطة مركز للخدمات أو نواة لها جميعاً . والمهم فى هذا الصدد كلا الفئتين كانتا تتميزان فى مرحلة معينة من مراحل التطور بنوع من العزلة عن العالم الخارجى نسبياً . ومن خلال هذا أصبحت العوامل الصورية فى بناء القرية عامل فرض للتكامل الاجتماعى . أما احتمالات الاختيار التى تميز الحياة الاجتماعية الحضرية وتضفى عليها طابعاً ديناميا . فلا وجود لها هنا .

ويميل الكتاب المحدثون إلى وصف مجتمعاتهم الغربية الحديثة بأنها مجتمع صناعى حضرى . وكثيراً ما نتكلم عن تصنيع المجتمعات وتحضرها . ولكننا يجب أن نكون على بينة دائماً – ونحن نستخدم هذه المصطحات – من أن هذا الواقع الذى نتكلم عنه دائم التغير لا يثبت على حال واحد أبداً . فالتحضر الذى تعرفه أوربا فى عام ١٩٧٢ ليس هو نفس النوع من التحضر الذى كان يصفه لويس ويرث عام ١٩٣٨ . فقد كان « ويرث » يرى أن العلاقات الاجتماعية فى المدينة تتصف بأنها « لا شخصية ، وسطحية ، وعارضة ، ومنحصرة داخل شرائح اجتماعية محددة » . الأمر الذى يترتب عليه افتقاد ساكن المدينة الإحساس بالتعاطف الموجود فى المجتمع المتكامل . وقد أثبت عدد كبير من الباحثين أن هذا الوصف غير صحيح ، وذلك استناداً إلى عدد من لبحوث الامبيريقية التى أجروها[١٩] . فى قلب المدن الكبرى توجد تكوينات اجتماعية يطلق عليها

الباحثون اسم « قرى حضرية Urban Villages تتميز الحياة فيها بالتماسك الاجتماعى الشديد وبالعلاقات الأولية ، وبالمثل يمكن أن نتكلم فى هذا الصدد عن « القرى الميتروبوليتانية » (على حد تعبير بالـ Pahl) التى تمثل مناطق ريفية أخذت الطابع الحضرى وأخذت أساليب الحياة الحضرية تسيطر عليها بشكل متزايد .

أما المناطق التى توصف اليوم فى الاستخدام اليومى العادى أو فى الاستخدام الإحصائى بأنها « ريف » فإنها تضم كيانات اجتماعية متباينة أشد التباين ، فقد كان الريف يعنى فى الماضى مجتمعات صغيرة وكثافة سكانية منخفضة . وسيطرة الاشتغال بالزراعة على سائر أوجه النشاط الاقتصادى ، والتجانس الاجتماعى النسبى ، ولكنا نجد فى مقابل هذا ما يقرره كثير من علماء الاجتماع ، وخاصة فى الولايات المتحدة ، من أن هناك فى جميع البلاد الصناعية المتقدمة « كثيراً من السكان الذين يعيشون فى مناطق ذات كثافة سكانية منخفضة ، ولا يمارسون أى نوع من الأعمال الزراعية على الإطلاق . وهكذا لم يعد الشكل الاجتماعى « مجتمعاً محلياً » (أو جاينشافت) يمكن أن يصدق على معظم فلاحى البلاد الصناعية اليوم ولا على سكان المناطق المتخلخلة سكانياً » . .

ولم يعد حجم الوحدة العمرانية التى يعيش فيها الناس . ولا تبعيتهم لجماعة مهنية معينة يمكن أن يعتبر معياراً لاعتبارها ريفية أو حضرية . إن هذا الاضطراب وعدم الوضوح قد تجلى أيضًا فى الإحصاءات الرسمية : من هذا مثلا أن اعتبرت الوحدات العمرانية التى يقل عدد سكانها عن ٢٥٠٠ نسمة فى الولايات المتحدة الامريكية مناطق ريفية ، بينما نجد ذلك الحد الأدنى المعتبر فى كندا هو ١٠٠٠ نسمة فقط ، بينما تعتبر الإحصاءات الألمانية الغربية أن المناطق ذات الألفى نسمة فأقل مناطق ريفية بالمعنى المحدود ، بينما المناطق التى يقل عدد سكانها عن خمسة آلاف نسمة مناطق ريفية بالمعنى العام الواسع ، وهكذا وصل الاضطراب والخلط إلى إحصاءات البلد الواحد . ونجد هذا الحد الأدنى للتحضر فى المكسيك هو ٢٥٠٠ نسمة وفى الأرجنتين ٢٠٠٠ وفى كل من الهند وبلجيكا ٥٠٠٠ نسمة . . إلخ . بينما تميز الدانمرك بين الريف والحضر عند عدد السكان ٢٥٠ فقط . وأسبانيا عند عشرة آلاف ، وهولندة عند عشرين ألفًا . ويقرر الكتاب السنوى الديموجرافى للأمم المتحدة لعام ١٩٥٢ أن التقسيم إلى ريف وحضر يتم بشكل تعسفى بالضرورة ، إذ ما من شك فى أن التصنيف يرجع إلى طبيعة الظروف الاقتصادية والاجتماعية العامة لكل بلد على حدة . ولكنها تؤدى على أى حال إلى تعويق وصعوبة إجراء مقارنات على أساس دولى ، بسبب تنوع وحدات المقارنة على هذا النحو الذى بيناه[٢٠] .

هوامش الفصل السادس

(١) انظر عرضًا عامًا للتراث السوسيولوجى فى دراسة الفروق الريفية الحضرية عند بيجل وهو نجز هايم فى مقالهما عن « علم الاجتماع الريفى والحضرى » فى :

Beegle, Allan and Paul Honigsheim, Agrar und Stadtsoziologie, in: G. Eisermann, (Hrsg.) Die Lehre von der Gesellschaft. Ein Lehrbuch der Soziologie, Stuttgart, 1958.

(٢) انظر على سبيل المثال منشورات الجمعية الاجتماعية الزراعية (الألمانية) :

Agrasoziale Gesellschaft, Industrialisierung Landlicher Raume, in: Veroffentlichungen der Agrarsozialen Gesellschaft Gottingen, Schriftenreihe fur landlicle Sozialfragen, Helt 18, Hannover. 1956.

(٣) انظر مؤلفه : « التاريخ الطبيعى للشعب الألمانى كأساس للسياسة الاجتماعية الألمانية » :

Richl, Wilhelm H., Naturgeschichte des deutschen Volkes als Grundlage einer dentschen Social-Politik, Stuttgart, 1851-55.

(٤) Nichols, Charles. K.A. Suggested Technique for Determining Wether a Community Can Be Classified as Rural or Urban, in: Rural Sociology, Vol. 5 (1940), pp. 454-460.

(٥) انظر مناقشة هذا الموضوع عند : زيوبرج ، « الفروق الريفية الحضرية . دراسة فى علم الاجتماع الريفى » ، ترجمة الدكتور محمود عوده فى المصدر التالى : محمد الجوهرى وآخرون ، ميادين علم الاجتماع ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، ١٩٧٠ ، ص ص ١١١ – ١٦٤ .

(٦) Sorokin, Pitirim A. and Carle Zmmermann, Principles of Rural-Urban Sociology New York, 1929, p. 16.

(٧) انظر نقدًا مفصلا لهذا المفهوم عند هربرت كوتر ، « علم الاجتماع الريفى الحضرى » :

Kotter, Herbert, "Stadt-Land-Soziologie", in: René Konig (ed.). Handbuch der empiris chen Sozialforschung, Band 2, pp. 601-621. خاصة صفحتى ٦٠٥ – ٦٠٦

(٨) Wirth, Louis, Urbanism as a way of life, in: American Journal of Sociology, Vol. 41, (1938).

(٩) Taylor, Carl C. et. al. Rural Life in the United States, 2ed. New York, 1952, p. 523.

(١٠) Anderson, Nels, the Urban Community. A World Perspective, New York, 1959 p.1.

(١١) Galpin Charles, "The Social Anatomy of an Agricultural Community" in: Wisconsin Agr. Exp. Sta. Bulletin, Vol. 34, Madison, 1915, Chap. 2.

(١٢) Mannheim, Karl, Freedom, Power and Democratic Planning, New York, 1950, p. 29.

(١٣) Hauser, Philip M., Observations on the Urban-Folk and Urban-Rural Dichotomies as Forms of Western Ethnocentrism, in: Philip Hauser and Leo Schnone (eds.) The Study of Urbanization, London, 1956 p. 514.

(١٤) استعرض محمد الجوهرى فى المقدمة التى كتبها لترجمته لكتاب بريز عن التحضر فى البلاد النامية وجهات النظر المتحيزة ضد المدينة الكبيرة المعاصرة . انظر ، محمد الجوهرى ، مجتمع المدينة فى البلاد النامية ، دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٧٢ مقدمة المترجم ، ص ص ١ – ١٩ .

(١٥) Bahrdt, Hans Paul, Die moderne Grosstadt, Hamburg, 1961, pp. 12 ff.

(١٦) Niehaus, Heinrich, Die Chance des Landes in der modern Gesellschaft. Bewahrung und Veranderung, in - Landliche Sozialforschung. Grundlagen und Entwicklun-gslinien. Bd. 168. Sonderheft der Berichte uber Landwirtschaft Hamburg, 1957, p. 28.

(١٧) Elisabeth, "Soziologie der Grosstadt", in: A. Gehlen und H. Schelsky (Hrsg). Soziologie, Dusseldorf. S. 239.

وتقدم بفايل فى نهاية ذلك الفصل عرضًا لأهم الكتابات فى علم الاجتماع الحضرى .

(١٨) Smith, T. Lynn, The Sociology of Rural Life, 3rd ed., New York 1953. And: the Rural Community with Special Reference to latin America, in: Rural Sociology, Vol. 23 (1958). pp. 58-59.

(١٩) انظر من هذه الدراسات على سبيل المثال :

Pahl, R.E., Urbs in Rure. The Metropolitan Fringe in Hertfordshire, in: London School of Economics and Political Science. Geogrphical Paper Nr. 2 (1955).

وكذلك مقال بال الهام عن المتصل الريفى الحضرى :

The Rural-Urban Continum, in: Sociologia Ruralis, Vol. 6 (1966).

وأخيرًا دراسات أوسكار لويس ، ويونج وويلموت M. Young and P. Wilmott ، وجانس .

(٢٠) انظر مزيدًا من التفاصيل والإحصائيات عن هذه النقطة عند ، هربرت كوتر ، المرجع السابق ذكره ، ص ٦١٠ – ٦١١ .